

مدخل إلى منهجية النظرية المجدرة.

Introduction to Grounded Theory Methodology .

حفيظة مخنفر*

المعهد الوطني للبحث في التربية (الجزائر)، hafida.mokhenfer@inre.dz

تاريخ الاستلام: 2025/01/22؛ تاريخ القبول: 2025/10/10

ملخص : تهدف الورقة البحثية إلى التعريف النظرية المجدرة كمنهج كفي يمكن الباحث من دراسة الظاهرة في سياقها الاجتماعي، سيتم تبين ماهية النظرية المجدرة مفهومها ونشأتها، مع توضيح الكيفية التي أثبتت بها النظرية المجدرة علميتها بعيد عن المناهج الوضعية الكمية، ثم تبين الإجراءات المنهجية التي يسلكها الباحث في بناء النظرية المجدرة بداية من صياغة السؤال الرئيسي، إلى نوع العينة المستخدمة وحجمها، ثم توضيح الكيفية التي تتشكل بها النظرية المجدرة إجرائيا، وصولا إلى تبين منهجية التحليل، وأدوات جمع البيانات الموظفة فيها.

الكلمات المفتاحية : النظرية المجدرة، المناهج الكيفية، منهجية البحث، المقابلة، الملاحظة.

Abstract : The paper aims to introduce the grounded theory as a qualitative approach that enables the researcher to study the phenomenon in its social context. The paper will explain what the grounded theory is, its concept and origins, clarify how the grounded theory has proven its scientificity away from quantitative positivist approaches, then explain the methodological procedures that the researcher follows in building the grounded theory from the formulation of the main question, to the type and size of the sample used, then explain how the grounded theory is formed procedurally, until the analysis methodology and data collection tools employed in it are explained.

Keywords : Grounded theory ; qualitative methods ; research methodology ; research methodology ; interview.

* حفيظة مخنفر

1- مقدمة

يُنظرُ للنظرية في علم الاجتماع على أنها تلك المفاهيم والقضايا المترابطة، التي تفسر ظاهرة اجتماعية ما بهدف التحكم فيها والتنبؤ بمآلها، ومن المعروف أن النظرية السوسيولوجية تنشأ من دراسة الواقع الاجتماعي وفق منهجية علمية قائمة على توظيف مناهج وأدوات بحث علمية، كما يتم إثبات أو نفي النظرية أو تجديدها من خلال الدراسات الميدانية؛ لأن النظرية الاجتماعية تنشأ في سياق اجتماعي معين وتتجدد وتتغير فيه، لذلك دائما ما تطرح إشكالية صعوبة تطبيق النظريات السوسيولوجية التي أسسها علماء اجتماع غربيين في مجتمعات مغايرة للمجتمعات التي نشأت فيها.

ويعرف مجال البحث ثلاث مقاربات منهجية كبرى هي: المناهج الكمية والمناهج الكيفية والمناهج المختلطة، كل منها يتم توظيفه وفق منهجية معينة حسب متطلبات مشكلة الدراسة. ومن المناهج الكيفية نجد منهجية النظرية المجذرة التي يتم توظيفها في دراسة الظواهر التي لم يسبق دراستها.

تأسيا على ما سبق تحاول الورقة البحثية الحالية التعريف النظرية المجذرة كمدخل للتأسيس لدراسة الظاهرة الاجتماعية في سياقها الاجتماعي، وذلك من خلال الإجابة على الأسئلة الفرعية التالية :

- ما هي النظرية المجذرة مفهومها ونشأتها؟

- ما مدى علمية النظرية المجذرة؟

- ما هي الإجراءات المنهجية التي يسلكها الباحث في بناء النظرية المجذرة؟

- ما نوع العينة الملائمة في النظرية المجذرة؟، وما حجمها؟

- ثم كيف تتشكل النظرية؟ وما منهجية التحليل وما دور الباحث في اشتقاق النظرية المجذرة؟

- ما هي مصادر جمع البيانات في النظرية المجذرة؟

2- نشأة النظرية المجذرة

استمدت النظرية المجذرة أصولها من التفاعلية الرمزية التي هي ذاتها نشأت من أفكار برجماتية James Dewey و Cooley و Mead (1990, Corbin, Strauss). وتم تطويرها بواسطة Barney Glaser و Anselm Strauss منذ ستينات القرن العشرين، وتصنف النظرية المجذرة على أنها بحث كفي لإنتاج النظرية بشكل استقرائي. ويحدد Glaser النظرية المجذرة على أنها "منهجية عامة للتحليل مرتبطة بجمع البيانات وفق مجموعة من المناهج المطبقة لتوليد نظرية بشكل استقرائي في مجال ما. قد تأسست النظرية المجذرة في الوقت الذي كان ينظر فيه إلى الدراسات الكمية أو الاستنتاجية على أنها هي التي يمكن أن توفر بحثاً علمياً منهجياً. (Helen Heath and Sarah Cowley ; 2004)

3- مفهوم النظرية المجذرة

مفهوم النظرية المجذرة أصله باللغة الإنجليزية Grounded Theory ، في اللغة العربية Theory : يقابلها مصطلح النظرية، بينما Grounded حسب المراجع التي اعتمدت عليها الورقة البحثية يقابلها عدد من المصطلحات المختلفة.

في اللغة الإنجليزية كلمة Grounded صفة (Adj) ، وتتفق عدد من القواميس الإنجليزية؛ بما فيها قاموس أكسفورد الإلكتروني أنها تعني (to be) based on something أي تأسيس شيء على شيء ما مختلف عنه، (<https://www.oxfordlearnersdictionaries.com/definition/english/grounded>). ترجمة مصطلح "Grounded" إلى العربية تختلف من باحث إلى آخر، إذ نجد مثلاً: زيتون (2006) يستعمل مصطلح "الكامنة" تارة والمتأسسة تارةً أخرى. بينما الجوهري (2016) يستعمل مصطلح "الموثقة" في ترجمته لكتاب بوب ماتيوزو ليز روس (2016)، ومحمود (2018) والخليفة (1999) استعمالاً مصطلح "المجذرة".

من الملاحظ أن جميع المقابلات في اللغة العربية التي استخدمها الباحثين تُحيل إلى معنى أو مفهوم شيء ما في طور التأسيس، أو الإنجاز والتطور التدريجي، أو الانبثاق في الشكل الذي تتطور به كرة الثلج التي كلما تدرجت زاد حجمها؛ وذلك ما يتوافق مع المعنى الاصطلاحي لمفهوم النظرية المجذرة كما سيأتي ذكره لاحقاً.

بالنسبة للورقة البحثية الحالية ستتبنى مصطلح "المجذرة"، لأنه الأكثر استعمالاً بين الباحثين العرب، وثانياً لأن الفعل جذر الشيء في اللغة العربية: "يعني أخرجه من أصله واستأصله من جذوره <https://www.almaany.com/ar/dict/arar/%D9%85%D8%AC%D8%B0%D8%B1%D8%A> 9، وذلك هو الفعل الذي يقوم به الباحث -فعلاً- في النظرية المجذرة؛ أين يقوم باستخراج النظرية من ميدان الدراسة ويوصل لها ويكونها من حيث لم تكن من قبل.

يرى ستراوس وكوربين (1999) أن النظرية المجذرة هي تلك النظرية التي تمت صياغتها بأسلوب استقرائي من تلك الظواهر المقصودة بالدراسة، أو هي تلك النظرية التي تم اكتشافها وتطويرها والتحقق من صحتها من خلال الجمع والتحليل المنظم للبيانات الخاصة بتلك الظواهر، بحيث يكون جمع البيانات وتحليلها والنظرية في علاقة تبادلية، فأَي باحث يبدأ بدراسة ظاهرة ما سامحاً، أو تاركاً كل ما له علاقة بذلك أن يبدو ويخرج للعيان تلقائياً. (ستراوس، وكوربين، 1999). ويعتبر توليد النظرية المجذرة هي طريقة للوصول إلى نظرية مناسبة لاستخداماتها المفترضة (Glaser & Strauss, 1999, p2-p3). أي أنها منهجية لبناء نظرية لم تكن موجودة من قبل تستخدم لدراسة ما أنشأت لأجله وسنرى فيما بعد شروط صياغة نظرية تستجيب للمعايير العلمية.

ويرى (صيام، 2013) أن هذه النظرية تأتي من رحم المناهج التفسيرية الهدف منها بناء نظرية من خلال تحليل البيانات تحليلًا استقرائياً Inductive، وهو ما يسهل عملية الانتقال من البيانات إلى النظرية، وليس من النظرية إلى تحليل البيانات، كما هو الحال في كل النظريات التي عرفت في زمن الحداثة. حيث يتم تحليل البيانات من خلال ما يسمى بالحساسية النظرية باستقرائها وتأويلها بهدف صياغة فرضيات جديدة تستند إلى وفرة البيانات التي تم التوصل إليها.

4- مدى علمية النظرية المجذرة

تأسست منهجية النظرية المجذرة بطريقة بعيدة عن المناهج الوضعية ومناهج العد والقياس؛ في مرحلة من تطور النظرية السوسيولوجية شهدت عداء كبير للمناهج الكيفية؛ أين واجه أنصار النظرية المجذرة مشكلة

ابستمولوجية؛ مفادها إلى أي مدى يمكن الحكم بعلمية النظرية المجذرة؟ سؤال يستلزم أسئلة فرعية أخرى: ما مدى انطباق النظرية المجذرة على الظواهر التي أنشأت لأجلها؟ وما الجانب الإبداعي فيها؟ وما مدى مصداقية نتائجها؟ أي كيف يمكن إثبات مصداقيتها بعيد عن المناهج الوضعية؟ وهذا ما يتم الإجابة عليه فيما يلي:

4-1- انطباق النظرية على الظواهر التي وجدت لأجلها

قام كل من ستراوس وكوربين (1999) بالإجابة على الأسئلة الإشكالية السابقة، ويريان في كتابهما " أساسيات البحث الكيفي أساليب وإجراءات النظرية المجذرة" أن أي نظرية مجذرة تم بناؤها بإحكام ستتوفر فيها المعايير الأربعة الأساسية للحكم على مدى انطباق النظرية على الظواهر التي تدور حولها، وهي: المطابقة أو التوافق والفهم والعمومية والضبط. فإذا كانت النظرية صادقة فيما تقوله عن الظاهرة المدروسة، وتمت صياغتها بأسلوب استقرائي دقيق من واقع بيانات متنوعة، فإنها ستكون قابلة للفهم الشامل بما يجعلها قابلة للانطباق على سياقات وبيئات مختلفة تتعلق بتلك الظاهرة.

وقد تطرق لذلك بالتفصيل كل من Glaser, and Strauss (1999) في كتابهما The Discovery of Grounded Theory Strategies for Qualitative Research؛ حيث يؤكد كل منهما أن وظائف النظرية في علم الاجتماع هي: أن تمكن من التنبؤ بالظاهرة الاجتماعية، وتشرح السلوك الاجتماعي، وتساهم في تطوير النظرية في علم الاجتماع، ويجب أن يكون التنبؤ والتفسير قادرين على إعطاء الباحث إمكانية الفهم والسيطرة النسبية على المواقف.

4-1- المصداقية

وضع كل من Glaser & Strauss (1999) مرجعيات عديدة للحكم على مصداقية النظرية المجذرة، وتمكن من مواجهة النقد والجدل المتكرر لتشويه توليدها وتقنيات واستراتيجيات البحث الكمي والنوعي المرتبطة بها؛ ينبع هذا النقد من اعتبار علماء الاجتماع أن حجتهم للوصول إلى درجة عالية من المصداقية Credibility هو التحكم في منهجية الدراسة الكمية وقوانينها؛ لكن Glaser و Strauss أثاروا شكوكاً حول قابلية تطبيق هذه القوانين كمعايير مناسبة للحكم على مدى مصداقية نظرية مبنية على بحث مرن Flexible Research واقترحوا أن يكون الحكم على مصداقية النظرية المجذرة مستند بدلاً من ذلك؛ إلى العناصر التفصيلية للاستراتيجيات الفعلية المستخدمة في جمع البيانات وترميزها وتحليلها وتقديمها عند إنشائها، وعلى الطريقة التي بها يقرأ الناس النظرية .

وبين كل من Glaser & Strauss (1999) بعض التفاصيل التي تحيط بكل من النظرية المجذرة والحكم على مدى مصداقيتها إذا قاموا فحددوا موقفهم من مصداقية النظرية المجذرة من وجهة نظر الباحث الذي يشعر بأنه - أكمل توليد نظريته وهو يثق بها لدرجة كافية لنقلها to convey إلى الآخرين من خلال نشرها كبحث علمي؛ ثم ناقشوا بعد ذلك كيف يمكن للقراء أن يحكموا على النظرية التي توصل إليها الباحث، وكيف أن اكتشاف النظرية مرتبط بدقة تحقيقه الميداني.

هناك عدد من المؤشرات التي تجعل القارئ يحكم بصدق النظرية Judging Credibility ، أولها: أن ينخرط القارئ في الوصف إلى درجة يشعر بأنه كان يعمل أيضًا في ميدان الدراسة، فيؤدي به ذلك الشعور إلى الحكم بمصادقية النظرية، ثانيًا يعتمد حكم القارئ على النظرية -أيضًا- من خلال تقييماته لكيفية توصل الباحث إلى استنتاجاته، لأنه سوف يلاحظ: مجموعة الأحداث التي رآها الباحث، وماهية المستجوبين، ويقيم أنواع البيانات التي استعملها الباحث (Glaser & Strauss, 1999) .

مؤشر آخر يزيد من الحكم على مصداقية النظرية بقدر أكبر؛ هو تعدد مجموعات المقارنة؛ وذلك من خلال التركيز الدقيق على أوجه التشابه والاختلاف بين المجموعات المختلفة، لأن المحلل تزداد معارفه بشكل أفضل في حالة مقارنة عدد من المجموعات؛ أكثر مما لو كان قد درس فقط مجموعة واحدة، أو نظامًا اجتماعيًا واحدًا، أو عددًا قليلًا من الأنظمة الاجتماعية؛ وبالتالي معرفة أي أنواع من الهياكل الاجتماعية نظريته قابلة لأن تنطبق عليه (Glaser & Strauss, 1999) .

الإجراءات المنهجية في بناء النظرية المجذرة

4-1- السؤال الرئيسي في النظرية المجذرة

السؤال الرئيسي هو ذلك السؤال الذي يتم من خلاله حصر إشكالية الدراسة وهدفها، وانطلاقًا منه تبني الفرضية العامة للدراسة والفرضيات الجزئية، أو الأسئلة الفرعية. وتوجد أربع أنواع مختلفة من التساؤلات البحثية كالتالي :

التساؤل الاستكشافي يمثل محاولة أولية لفهم أو إيضاح إحدى العمليات والظواهر الاجتماعية عندما لا يملك الباحث القدر الكافي من الفهم المسبق للظاهرة. بينما التساؤل الوصفي فيترتب على الأسئلة الاستكشافية التي سبق طرحها، وتهتم بقياس الأبعاد الكمية للمجال أو القضايا أو الظواهر المراد دراستها من قبيل كم عددها؟ أين هي؟ كم نسبة الذين يتأثرون بها؟ (ماتيز و روس، 2016)

والتساؤل التفسيري وهو التساؤل الذي يطرح عادة في صورة تساؤل عن السبب والأسباب (لماذا؟) فهو يبحث عن الآثار والنتائج مثل لماذا؟ كيف حدث؟ ما العمليات الفاعلة في حدوث ذلك؟ ثم التساؤل التقييمي ويهتم بمعرفة قيمة ممارسة أو ظاهرة اجتماعية معينة، وذلك عن طريق طرح مثل هذه التساؤلات: ما أكثر الجوانب نجاحًا؟، ما مدى نجاحها (أو إخفاقها) ما مدى فاعلية ذلك وعلى الغالب يشمل هذا النوع من البحوث توصيات بشأن كيفية تحسين أو تغيير شيء معين. (ماتيز و روس، 2016)

أما في حالة النظرية المجذرة فإن الهدف من الدراسة هو التأسيس لنظرية لتفسر ظاهرة ما، وبالتالي فإن طبيعة سؤال الانطلاق تختلف عن طبيعة الأسئلة السابقة، وبحسب ستراوس وكوربين (1999) فإن السؤال الرئيسي يطرح في البداية كسؤال مفتوح وعام في نفس الوقت، ولكنه ليس مغلقًا أو محددًا إلى الدرجة التي تمنع احتمال الوصول إلى الاكتشاف الذي يمثل الهدف المحوري من وراء استخدام طريقة النظرية المجذرة. وبما أن النظرية في طور الاكتشاف؛ فإنه لا يجب البدء بعبارات عن علاقات بين متغير تابع ومتغير مستقل، كما هو المعتاد في الدراسات الكمية، لأن الباحث ليس في طور اختبار فرضيات، إن سؤال الانطلاق في طريقة النظرية المجذرة يتمثل في عبارة تحدد الظاهرة المراد دراستها، فيحيط الباحث

بما يريد التركيز عليه وما يريد أن يعرف عن الموضوع، كما أن أسئلة دراسة منهج "النظرية المجردة" تميل إلى الاهتمام بالفعل والعملية .

4-2- المعاينة وحجم العينة:

بالنسبة لطبيعة العينة يرى صيام (2013) يرى أن هناك اختلاف واضح بين اختيار العينة في هذه النظرية وعن عداها من النظريات الأخرى ويوضح ستة عشر نوعاً من العينات هي: عينة الحالات المتطرفة Extream Sample ، العينة المكثفة والغنية Untensity ، العينة المتباينة Variation ، العينة المتجانسة Homogeneous ، العينات المتخصصة Typical ، العينة الهدفية الطيفية Stratified Purposeful ، العينة الحادة Critical ، العينة المتضاعفة (كرة الثلج) Snowball ، العينة المعيارية (ذات المحك) Criterion ، العينة المؤسسة اجرائية Operational Construction ، العينة المؤكدة أو غير المؤكدة Coufiruning or Disconfiruning ، العينة المرتبطة بالفرص المتاحة Opporaturunistic ، العينة العشوائية Random ، العينة المشهورة سياسياً Political important: العينة الملائمة Convenience ، العينة المختلطة Mixed .

بالنسبة لحجم العينة في منهج النظرية المجردة يختلف عنها في بقية أنواع البحوث الكمية والكيفية، لأنه يتعلق ببداية ظهور النظرية وتشكلها، وعلى حسب ستروس وكوربين (1999) فإن حجم العينة مرتبط بمفهوم "التشبع النظري" أي المرحلة التي تصبح فيها عملية جمع البيانات لا تضيف الجديد من البيانات والمفاهيم.

ويحدث التشبع النظري في جمع البيانات عندما: يتضح أنه لا توجد بيانات جديدة تظهر فيما يتعلق بفئة ما، وقد تم تطوير الفئة جيداً من حيث خصائصها وأبعادها، والعلاقات بين الفئات ثابتة وتم التحقق من صحتها؛ بمعنى آخر يستمر الباحث في توسيع حجم العينة حتى تصبح عملية جمع البيانات (مثل المقابلات) لا توفر أي بيانات جدي (Thomson, 2011) .

الجانب الآخر الذي قد يحدد حجم العينة هو طبيعة الموضوع المراد دراسته، أو حساسية الظواهر التي تجري دراستها؛ كموضوع القيم؛ إذ غالباً ما تُعتبر القيم والمعتقدات التي يحملها الفرد شخصية إلى أبعد الحدود، وبالتالي يبدي المبحوثين مقاومة في التصريح عنها. مثال على ذلك قد تكون المعتقدات الروحية للفرد، وكيفية ارتباطها ببيئة العمل أو الكيف التي يوائم بها الفرد بين قيمه الأخلاقية والقيم الموجودة في البيئة التنظيمية (Thomson, 2011) .

يتأثر حجم العينة كذلك بقدرة الباحث أو خبرته أو معرفته، فكلما كان الباحث ذوو خبرة أكبر كلما كانت مهاراته أقوى في إجراء المقابلات حيث يمكنه توجيه وتشجيع المبحوث للكشف عن البيانات، كما هو موضح أعلاه يمكن أن تتأثر نقطة التشبع بنطاق سؤال البحث، وطبيعة أو حساسية الظاهرة المدروسة، وقدرة الباحث أو خبرته أو معرفته (Thomson, 2011)

ومع استمرار العمل في البحث، يتزايد حجم العينة بسبب ما يسميه And Glaser Strauss "الاختبار النظري للعينة" Theoretical Sampling إلا أنه شبيه بالمعاينة النظرية على زيادة حجم العينة،

بل يهدف كذلك إلى زيادة ما فيها من تنوع واختلاف حتى يمكن اكتشاف خصائص أخرى ومختلفة مستقبلاً؛ وحينما يصبح من المتعذر الحصول على بيانات جديدة عن الفئات التي حددتها (وخاصة البيانات المتصلة بالفئة المركزية للبحث) يقال حينئذ أننا قد وصلنا إلى حالة تشبع البيانات. في هذه اللحظة يتوقف الباحث عن إضافة المزيد من البيانات عن هذه الفئة وينتقل إلى القيام بالتصنيف، ثم عملية أخرى ينبغي أن يقوم بتنفيذها الباحث في نفس وقت القيام بعملية التكويد، وهي عملية "تدوين المذكرات السريعة الموجزة". (مانتوز، وروس، 2016) تدوين المذكرات الذي يعتبر كوسيلة لجمع البيانات مثل أدوات جمع البيانات النوعية (كثيرة الشبه بالملاحظة).

5- تشكل النظرية ومنهجية التحليل

5-1 دور الباحث في اشتقاق النظرية المجردة

يتمثل دور الباحث في اشتقاق النظرية المجردة من خلال عدة جوانب منها: قدرة الباحث على الإبداع الذي يظهر في قدرة الباحث على تسمية وتصنيف الفئات بحرية، وكذلك في ترك العقل يتأمل ويضع ما يشاء من الارتباطات غير المقيدة والضرورية لصياغة أسئلة مثيرة، وكذلك الخروج بالمقارنات التي أدت إلى الاكتشاف، مما يمكنه من الإقرار والاعتراف بالفئات الكامنة والممكنة، وكذلك تحديد الأسباب والنتائج ذات العلاقة عندما تتضح وتظهر في البيانات. (ستراوس وكوربين، 1999، ص30)

كما يتجلى دور الباحث من خلال استخدامه لمصادر متنوعة لجمع البيانات، وفهمه الجيد لمكونات النظرية المجردة والتي هي: وصف الظاهرة، من دون تفسير لماذا حدثت أحداثها، أو لم تحدث أحداث وظواهر أخرى غيرها، والترتيب المفاهيمي conceptual arrangement أو تصنيف الأحداث أو الأشياء وفق أبعاد محددة، وعملية التنظير Theory Making أو الوصول إلى نظرية والتي تتمثل في تطوير بناء نظري متكامل فيه المفاهيم، ويوفر أساساً للتفسير والتنبؤ بالأشياء. (قنديجي وسامرائي، 2009)

ويزداد دور الباحث صعوبة وأهمية في الوقت ذاته؛ عندما يكون المطلوب منه المحافظة على التوازن بين الموضوعية وحساسية الظاهرة (تحسس الظاهرة أي أحساسة بأن النظرية بدأت بالظهور)، ثم جمع البيانات وتحليلها بالموازنة بين الحساسية والموضوعية؛ ويعني التوازن بين الموضوعية والحساسية أن الباحث يتفاعل مع البيانات التي يقوم بجمعها؛ الأمر الذي يؤدي إلى تدخل خبرته السابقة، وتوجهاته، في الاستنتاجات التي يتوصل إليها حول الظاهرة التي يدرسها. (قنديجي وسامرائي، 2009)

5-2 الحساسية النظرية :

تشكل النظرية وظهورها يعتمد بشكل كبير على "الحساسية النظرية" sensitivity أو مدى قدر الباحث على تحسس ظهور النظرية أو النقطة التي يشعر فيها الباحث بانبثاق النظرية.

الحساسية النظرية تشير إلى كل من: وضوح الرؤية، والقدرة على إعطاء معانٍ للبيانات، والفهم الشامل للظاهرة، والقدرة على التمييز بين الأشياء ذات الصلة الوثيقة بالموضوع قيد الدراسة، وغير ذات الصلة فجميع هذه الأشياء يتم صياغتها في شكل مصطلحات تصورية نظرية لا مصطلحات جامدة. (ستراوس وكوربين، 1999)

صحيح أن الباحث يتبنى النظرية المجذرة عندما يكون الموضوع قيد الدراسة تم تجاهله - نسبياً - في الأدبيات أو كان الاهتمام به سطحي. ومع ذلك، سيكون للباحث خلفية نظرية من حقل معرفي خاص به، توفر له منظوراً يمكنه من دراسة المشكلة. لذلك سيتأثر عالم الاجتماع في توليده للنظرية المجذرة بمجموعة من الفكر الاجتماعي، وسيرى عالم النفس الظاهرة من منظور معرفي أو سلوكي أو اجتماعي، وقد يتأثر مُسير الأعمال بالمفاهيم التنظيمية أو التسويقية أو الاقتصادية أو النظم التي تشكل تحليل السلوك الإداري؛ كل هذه الخلفيات النظرية والمعرفية توفر الحساسية النظرية sensitivity والتركيز focus التي تساعد في تأويل البيانات التي تجمع أثناء عملية البحث. (Goulding; 2002)

خلاصة يمكن القول أن الحساسية النظرية هي جملة الصفات التي يتحلى بها الباحث؛ خاصة ما يرتبط منها بالوعي بالمعاني، ووضوح الرؤية، ودقة البيانات، وقدرته على التمييز بين الأشياء وإيجاد المفاهيم التصورية غير الجامدة؛ وهو ما يفترض وجود التجربة والخبرة المهنية والإبداع لفهم الأحداث وإيجاد التحليلات غير السطحية. (صيام، 2013)

5-3- التأكيد أو الترميز:

بالإضافة إلى الحساسية النظرية يعتمد توليد النظرية المجذرة على إجراءات عملية في التحليل، تعتمد بشكل أساسي على عملية التأكيد أو الترميز؛ التي تستخدم في الكثير من أنواع التحليل الكيفي، وتعتمد على فكرة وضع علامة على جزء من البيانات يكون "لافتاً للنظر"؛ لكي يمكن العثور عليه مرة ثانية لإجراء المزيد من الدراسة عليه، وذلك بوضع علامة لافت الانتباه (كالأسهم ونحوها) لتأكيد أهمية نص ما، ولتكن العلامة (أ) تدل على أهميته، و(ب) أن تعثر عليه مرة ثانية عندما تحتاج لذلك. (ماتيز، روس، 2016) إن التحليل في النظرية المجذرة يتكون من ثلاثة أنواع رئيسية من الترميز هي: الترميز المفتوح Open coding، الترميز المحوري Axial coding، الترميز الانتقائي Selective coding.

التأكيد المفتوح: هو المرحلة الأولى من التأكيد، وهو قائم حسبما يرى Strauss and Glaser (1967) على مبدأ "إظهار ما بداخل البيانات" كخطوة أولى أي تمييز الموضوعات والفئات، والواقع أن هذا التأكيد يتعلق بتحديد ووصف الظواهر محل البحث، وإعطائها أسماء مناسبة. (ماتيز، روس، 2016)

التأكيد المحوري: هو المرحلة الثانية من عملية التأكيد وهو يتعلق بربط الأكواد ببعضها البعض، وهو أمر لا يمكن القيام به إلا عن طريق التفكير الاستنتاجي والتفكير الاستقرائي. (ماتيز، روس، 2016)

التأكيد الانتقائي: هو الجزء الأخير من نظام التأكيد، وهو عملية اختيار "فئة أساسية"، ثم ربط كل ما عداها من الأكواد والموضوعات والفئات الأخرى بها. وتوجد في النظرية المجذرة مسلمة تقول بوجود فئة مركزية دائماً. (ماتيز، روس، 2016)

5-4- المقارنة:

المقارنة عملية مكملية لعملية التأكيد فبعد نهاية كل جلسة جمع بيانات تسجل "النتائج" وتستخدم فوراً كجزء من عملية المقارنة المستمرة التي تعتبر عناصر محورية في عملية التحليل، حيث يتم المقارنة بين

البيانات المأخوذة من مصادر مختلفة والتي قد تضم بطبيعة الأمر الدراسات السابقة والنتائج الإمبريقية، والادعاء هنا أنه مع استمرار هذه العملية سوف تظهر النظرية بحيث يصبح من الممكن حينئذ مقارنة البيانات والنظرية (مانتوز و روس، 2016) ويقع التأكيد وكتابة المذكرات السريعة الموجزة والمقارنة في صميم التحليل القائم على النظرية المجذرة.

6- مصادر جمع البيانات في النظرية المجذرة

كما هو الحال في المناهج الكيفية الأخرى، يمكن أن تجمع البيانات الخاصة بالنظرية المجذرة من مصادر مختلفة، وتتضمن أدوات جمع البيانات Sources of Data المقابلات والملاحظات؛ بالإضافة إلى مصادر أخرى؛ مثل الوثائق، والفيديوهات، والصحف، والرسائل، والكتب، وأي نوع من مصادر البيانات قد يساعد في الإجابة على سؤال إشكالية الدراسة، ويمكن ترميز أو تأكيد كل مصدر من هذه المصادر بنفس طريقة ترميز المقابلات أو الملاحظات، ويستخدم الباحث في الميدان وسائل جمع البيانات الشائعة لضمان مصداقية المبحوثين، وتجنب تحيزهم. ويتبع الباحث - كذلك - إجراءات وقائية مماثلة في حالة جمع وتحليل البيانات الوثائقية. (Corbin, and Strauss, 1990)

إن اعتماد هذه النظرية على مثل هذه الآليات يسمح بتوليد مستوى كثيف من المفاهيم، بطريقة تعتمد على الترميز المفتوح للمواقف والحوادث المختلفة التي تحدث في إطارها الأشياء، والتي تخضع دائماً للمقارنة مع غيرها، حتى يتم دمجها مع أخرى. (صيام، 2013)

وعلى عكس المناهج الكيفية الأخرى التي تعترف بمصدر واحد فقط للبيانات، على سبيل المثال: المنتجات اللغوية لمفردات مجتمع البحث كما في حالة منهج الظاهرانية، فإن البحث في النظرية المجذرة قد يعتمد على مصدر واحد أو مصادر متعددة لجمع البيانات يمكن أن تتسع لتشمل البيانات الثانوية، السير الذاتية، والمقابلات، والاستبطان، والملاحظات والمذكرات (Goulding ; 2002)

6-1 التحليل الثانوي للبيانات النوعية

التحليل الثانوي للبيانات النوعية Secondary Analysis of Qualitative Data هو استخدام البيانات التي تم جمعها في دراسة بحثية سابقة، هذا النوع من البيانات حظي باهتمام محدود في الأدبيات السوسيولوجية؛ لأن هذا يعود بالدرجة الأولى إلى التصورات القائلة بأن البحث يكون حقيقي وواقعي 'real' فقط إذا كان يتضمن جمع بيانات أصلية original data collection ؛ ومع ذلك، في حالات التي يكون فيها نقص في مصادر البيانات، أو الوقت لا يسمح بجمع المزيد من البيانات، أو هناك مشاكل في الوصول إلى الأفراد، هذه الحالات يمكن أن توظيف فيها البيانات الثانوية ويمكن إدراجها كمصدر رئيسي للمعلومات . (Goulding ; 2002)

٦-٤ استعمال المذكرات:

جزء آخر من منهج النظرية المجذرة يتمثل في استخدام المذكرات The Use of Memos طوال رحلة البحث؛ يمكن استخدام المذكرات مع بيانات الملاحظة، أو مع أي شكل من أشكال البيانات؛ هذه المذكرات مهمة جداً، لأنها توفر مجموعة من الأفكار التي يمكن العودة إليها، لتساعد في استخراج النظرية المجذرة، وتستخدم لتحديد المفاهيم وخصائصها؛ خاصة أن المذكرات هي الأفكار التي تمت ملاحظتها أثناء عملية

جمع البيانات والتي تساعد على إعادة توجيه الباحث في وقت لاحق، ومع ذلك، يمكن أيضًا أن تظهر الأفكار بعيدًا عن البيانات ويجب تدوينها عند ظهورها (Goulding; 2002) .

حسب Glaser يجب على الباحث أن يكتب بحرية وأن يغامر بالأفكار. في المراحل الأولى يجب تشغيل المذكرات "مفتوحة" open دون ادعاء أنها ملائمة Fit ، يمكن التأسيس للملاءمة Fit من خلال فرز المذكرات في مرحلة لاحقة، بدون المذكرات لن تكون هناك أفكار، تساعد المذكرات في تكوين العلاقات وأطر تكاملية مجردة ومشكلات أكثر عمومية (Goulding; 2002) .

التحليل الثانوي للبيانات النوعية Secondary Analysis of Qualitative Data هو استخدام البيانات التي تم جمعها في دراسة بحثية سابقة، هذا النوع من البيانات حظي باهتمام محدود في الأدبيات السوسيولوجية؛ لأن هذا يعود بالدرجة الأولى إلى التصورات القائلة بأن البحث يكون حقيقي وواقعي "real" فقط إذا كان يتضمن جمع بيانات أصلية original data collection؛ ومع ذلك، في حالات التي يكون فيها نقص في مصادر البيانات، أو الوقت لا يسمح بجمع المزيد من البيانات، أو هناك مشاكل في الوصول إلى الأفراد، هذه الحالات يمكن أن توظيف فيها البيانات الثانوية ويمكن إدراجها كمصدر رئيسي للمعلومات. (Goulding; 2002)

6-2- المقابلة:

تظل المحادثة، والمقابلة، واحدة من أهم أدوات التحليل الاجتماعي، وهي وسيلة يتم من خلالها اكتساب البصيرة والقدرة على النفاذ في مجريات الحياة اليومية، فضلاً عن معرفة الأبعاد الاجتماعية والثقافية للمجتمعات، وللمقابلات عدة أشكال منها المقابلة المنظمة، وغير المنظمة، والجماعية، والوجاهية، أو التي تُجرى عبر الهاتف؛ في النظرية المجذرة الشكل الأكثر شيوعاً للمقابلة هو المقابلة الوجاهية أي وجهًا لوجه، والمقابلة غير المنظمة أو المقابلة شبه المنظمة، والمقابلة مفتوحة النهاية، والمقابلة بمحادثة معمقة. إجراء المقابلة تعترضه عدة صعوبات، كصعوبة الدخول إلى مؤسسة والحصول على إذن للتحدث إلى الموظفين أو الإدارة أو العملاء، فيتوجب الأمر الحصول على رخصة الدخول، وصعوبة فهم لغة وثقافة المستجوبين فعندما يكون البحث في مجتمع متعددة الثقافات يصبح إجراء المقابلة أمر صعب، لذلك يتعين على الباحث أن يكون مهياً لذلك. (Goulding; 2002)

6-3- الملاحظة:

طريقة أخرى لجمع البيانات، والتي غالبًا ما تُستخدم لدعم البيانات التي يتم الحصول عليها بالمقابلات، هي الملاحظة Observational Data والتي تشير إلى تقنيات جمع البيانات التي تركز على "التجربة" حيث يلاحظ الباحث انطباعات "واقعية" في مجال دراسة أصيل، ويمكن أن تسجل الملاحظات يدويًا، أو من خلال استخدام آلة التصوير؛ والسمة المميزة للملاحظة هي طبيعتها الحيادية (أداة حيادية) إذ تقلل من أي تدخل في سلوك أولئك الذين تمت ملاحظتهم، أو أي تلاعب بأفكارهم ولا تحفيز لهم للتفاعل مع الباحث مثلما يحدث في المقابلة. (Goulding; 2002)

لكن ما يؤخذ على الملاحظة كأداة أن الباحث كبشر لا يستوعب أو لا يستطيع استيعاب النطاق الكامل للأنشطة التي تحدث في العالم الاجتماعي من حوله. وبالتالي فإن هذه "الانتقائية" selectivity كنقد واحد للطريقة الملاحظة، وهي أحد الأسباب التي تجعل الملاحظات المباشرة تعتبر أحياناً أكثر موثوقية reliable، كما أنها توفر سجلاً يمكن استخدامه كدليل عند تقديم البيانات. (Goulding ;2002) من ناحية أخرى، هناك قضايا أخلاقية أثّرت فيما يخص التسجيل الخفي لسلوك الأفراد دون علمهم أو موافقتهم؛ ومشكلات تتعلق بالموثوقية مثل درجة حدوث "الصدفة" chance مقابل السلوك "الحقيقي". (Goulding ;2002)

6-4 استعمال المذكرات:

جزء آخر من منهج النظرية المجدّرة يتمثل في استخدام المذكرات The Use of Memos طوال رحلة البحث؛ يمكن استخدام المذكرات مع بيانات الملاحظة، أو مع أي شكل من أشكال البيانات؛ هذه المذكرات مهمة جداً، لأنها توفر مجموعة من الأفكار التي يمكن العودة إليها، لتساعد في استخراج النظرية المجدّرة، وتستخدم لتحديد المفاهيم وخصائصها؛ خاصة أن المذكرات هي الأفكار التي تمت ملاحظتها أثناء عملية جمع البيانات والتي تساعد على إعادة توجيه الباحث في وقت لاحق، ومع ذلك، يمكن أيضاً أن تظهر الأفكار بعيداً عن البيانات ويجب تدوينها عند ظهورها. (Goulding ;2002) حسب Glaser يجب على الباحث أن يكتب بحرية وأن يغامر بالأفكار. في المراحل الأولى يجب تشغيل المذكرات "مفتوحة" open "دون ادعاء أنها ملائمة Fit، يمكن التأسيس للملاءمة Fit من خلال فرز المذكرات في مرحلة لاحقة، بدون المذكرات لن تكون هناك أفكار، تساعد المذكرات في تكوين العلاقات وأطر تكاملية مجردة ومشكلات أكثر عمومية. (Goulding ;2002)

7-الخاتمة:

تعتبر النظرية المجدّرة منهجية لدراسة الظواهر الاجتماعية، أسسها علماء الاجتماع، كمنهجية لدراسة الظواهر التي لم تعرف تراكم نظري بعد؛ استمدت أصولها النظرية من التفاعلية الرمزية، وطورها كل من Barney Glaser و Anselm Strauss منذ ستينات القرن العشرين، وتصنف النظرية المجدّرة على أنها بحث كفي، يتم التوصل إليها من خلال جمع البيانات بطريقة منتظمة في مسار عملية البحث، وتعتمد هذه النظرية بشكل أساسي على المفاهيم التي يقوم الباحث باستخراجها من البيانات والتوصل إلى العلاقات التي تربط بينها، وتفسر الظاهرة موضوع البحث .
واجه أنصار النظرية المجدّرة في بداية تأسيسهم لها إشكالية إبستمولوجية؛ تتعلق بمدى علميتها، وقدرتها على تفسير الظواهر التي وجدت لأجلها، ومدى مصداقيتها، حيث يرى ستراوس وكوربين بهذا الشأن أن علمية أي نظرية مجدّرة تم بناؤها متعلق بمعايير انطباق تلك النظرية على الظواهر التي وجدت لأجلها، وهي المطابقة والفهم والعمومية والضبط؛ كما وضع كل من Glaser و Strauss مرجعيات عديدة للحكم على مصداقية النظرية المجدّرة، واقترحوا أن يكون الحكم على مصداقية النظرية المجدّرة بالرجوع إلى العناصر التفصيلية للاستراتيجيات الفعلية المستخدمة في جمع بياناتها وترميزها وتحليلها وتقديمها عند إنشائها، وعلى الطريقة التي يقرأ بها الناس النظرية .

أما بالنسبة للإجراءات المنهجية في بناء النظرية المجذرة؛ فإنها لا تختلف تمام الاختلاف على منهجية الدراسات الميدانية في علم الاجتماع، فبالنسبة للسؤال الرئيسي، وبحسب ستراوس وكوربين فإنه يطرح في البداية كسؤال مفتوح يسمح باكتشاف النظرية؛ أما بالنسبة لطبيعة العينة فإن هذه النظرية تعتمد على العينات المقصودة، صغيرة العدد التي تخضع لأغراض الباحث نفسه، إذ يراعى فيها أن تكون تمثيلية لمجتمع البحث؛ وبالنسبة لحجم العينة في منهج النظرية المجذرة فإنه مرتبط بمفهوم "التشبع النظري" أي المرحلة التي تصبح فيها عملية جمع البيانات لا تضيف الجديد من البيانات والمفاهيم.

بعد صياغة سؤال الانطلاق يشرع الباحث في جمع البيانات معتمدا وبشكل أساسي على دوره كالباحث وقدرته على الإبداع في اكتشاف المفاهيم التي تشكل النظرية، ومدى امتلاكه للحساسية النظرية، أي تحسس بداية انبثاق النظرية، واستخدامه لمصادر متنوعة لجمع البيانات. ويعتمد الباحث في ذلك كله على التأكيد أو الترميز الذي يتكون من ثلاثة أنواع رئيسية من الترميز هي: الترميز المفتوح، الترميز المحوري، الترميز الانتقائي. والذي يكون في شكل مراحل متتابعة.

المرحلة الأولى التأكيد المفتوح وهو قائم على مبدأ "إظهار ما بداخل البيانات" كخطوة أولى أي تمييز الموضوعات والفئات، ثم التأكيد المحوري كمرحلة ثانية من عملية التأكيد ويتعلق بربط الأكواد ببعضها البعض، وهو أمر لا يمكن القيام به إلا عن طريق التفكير الاستنتاجي والتفكير الاستقرائي. ثم التأكيد الانتقائي وهو الجزء الأخير من نظام التأكيد، وهو عملية اختيار "فئة أساسية"، ثم ربط كل ما عداها من الأكواد والموضوعات والفئات الأخرى بها.

ومع استمرار العمل في البحث، يتزايد حجم العينة إلى أن يصبح من المتعذر الحصول على بيانات جديدة عن الفئات التي تم تحديدها والوصول إلى حالة تشبع في البيانات. في هذه اللحظة يتوقف الباحث عن إضافة المزيد من البيانات عن هذه الفئة وينتقل إلى القيام بالتصنيف، وفي ذات الوقت يقوم الباحث بالمقارنة كعملية مكملية لعملية التأكيد.

بالنسبة لمصادر جمع البيانات في النظرية المجذرة، كما هو الحال في المناهج الكيفية الأخرى، يمكن أن تجمع البيانات الخاصة بالنظرية المجذرة من مصادر مختلفة، وتتضمن أدوات جمع البيانات المقابلات والملاحظات؛ بالإضافة إلى مصادر أخرى؛ مثل الوثائق، والفيديوهات، والصحف، والرسائل، والكتب، وأي نوع من مصادر البيانات قد يساعد في الإجابة على سؤال إشكالية الدراسة.

- الإحالات والمراجع:

- أنسليم ستراوس، وجزليت كوربين (1999). أساسيات البحث الكيفي أساليب وإجراءات النظرية المجذرة، ترجمة: عبد الله بن حسين الخليفة، مركز البحوث والدراسات الإدارية.
- باسم محمود (2018). نحو علم اجتماع في السياق العربي في الحاجة إلى النظرية المجذرة، مجلة عمران، العدد 7/26، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر.
- بوب ماتيوز ليز روس (2016). الدليل العملي لمناهج البحث في العلوم الاجتماعية، ترجمة: محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة.

- شحاتة صيام (2013). النظرية المجدرة والبحث النوعي استقالة الموضوعية وتأسيس النظرية ، مجلة القاهرة، المعهد العالي للخدمة الاجتماعية بالقاهرة.

- عامر قنديلجي وإيمان السامرائي (2009). البحث العلمي الكمي والنوعي، دار اليازوري، الطبعة العربية.

- قاموس الكتروني:

<https://www.oxfordlearnersdictionaries.com/definition/english/grounded>

- قاموس إلكتروني: <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%85%D8%AC%D8%B0%D8%B1%D8%A9>

- كمال عبد الحميد زيتون (2006). تصميم البحوث الكيفية ومعالجة بياناتها، عالم الكتب نشر توزيع طباعة، القاهرة.

- Helen, Heath & Sarah, Cowley. (2004). Developing a grounded theory approach [Electronic Version]. a comparison of Glaser and Strauss, International Journal of Nursing Studies, p-p 141–150
- Thomson, S. B. (2011). Sample Size and Grounded Theory [Electronic Version]. JOAAG, Vol. 5. No. 1, the Department of Business at St. George's University in Grenada, West Indies, Electronic copy available at: <https://ssrn.com/abstract=3037218>
- Barney G. Glaser & Anselm L, Strauss.(1999).The Discovery of Grounded Theory Strategies for Qualitative Research [Electronic Version]. Aldine Transaction ;New Brunswick (U.S.A.) and London (U.K.) .
- Juliet Corbin' & Anselm Strauss. (1990) Grounded Theory Research: Procedures, Canons, and Evaluative Criteria [Electronic Version]. Qualitative Soc/ogy, Vol. 13, No. 1.
- Christina Goulding. (2002) Grounded Theory A Practical Guide for Management, Business and Market Researchers [Electronic Version]. SAGE Publications , First published; London ; Thousand Oaks ; New Delhi .
- Seidel, Stefan & Recker, Jan C. (2009) Using grounded theory for studying business rocess management phenomena [Electronic Version]. In: The 17th European Conference on Information Systems, 8-10 June 2009, Faculty of Economics of the University of Verona, Verona. <https://www.researchgate.net/publication/27476320>